حبيب الزيودي ورحلة البحث عن الذات

د. منى محيلان

يهدي حبيب هذه القصيدة إلى تيسير سبول الذي مات منتحرا برصاصة في الرأس سنة 1973 عن عمر لم يتجاوز الثالثة والثلاثين.

إن بحث المبدع عن ذاته كثيرا ما يؤرّقه لا سيما في المراحل الأولى من إبداعه. وتساؤلات الفنان عن رسالته في فنه تساؤلات مشروعة تقلقه وتثيره، وقد شغلت كثيرا هذه المسألة النقاد، ويرى فريق منهم أن رسالة الفنان هي خدمة مجتمعه؛ وذلك بالتعبير عن قضاياه وهمومه وحاجاته وتشخيص مشكلاته، لكنه يترك الحلول والعلاج للمختصين كلّ في مجاله، وثمة فريق آخر يرى أن رسالة الفنان وغايته من فنه هي غاية جمالية خالصة؛ وذلك بأن يشيع الفنان الإحساس بالجمال، فيتذوق لذته ويدعو غيره إلى التلذذ معه. وحبيب لم يكن بمنأى عن هاتين القضيتين، ومن المدهش أن هذه القصيدة - وهي آخر ما جادت به قريحة حبيب- تحكي مراحل رحلة بحثه عن ذاته، وتحدد رسالته من فنه وإبداعاته.

والزيودي في معظم دواينه وقصائده يحتفي بالمكان وجمالياته، ويلتقط صور الطفولة البدوية الريفية ومتعلقاتها الرعوية (معبّرا عنهما بالناي، والقمح والراعي)، استمع إلى قصائده المغناة مثل صباح الخير يا عمان، ومغناة أردنّ الشومات. وهيلي يا هيلي مهبشين الهيل، وفرسان الأمن العام.

في مقتمة قصيدتنا (في الأسطر الأربعة الأولى) أعلن حبيب أنه ابن الطبيعة وأنه مرتبط بالمكان وبما فيه من خير وعطاء (متمثل بالغيم)، لكنه مع ذلك يشعر بحزن وانكسار كبيرين،وحزن حبيب مضاعف وزائد عن

ويبدو أن الدور التوعوي الذي قام به الشاعر نحو غيره وجّهه نحو الوعي بذاته وتفهّمه رسالته الفنية، فها هو (في المقطوعة السادسة) يصل إلى المرحلة الخامسة في رحلة البحث عن الذات، ها هو ابن الأرض والطبيعة الجميلة يقتبس رسالته من عطاء الغيم (علمني الغمام دروسه في الشعر) فحين يسقط الغيم مطرا تنبعث رائحة الحياة (النعناع) ويتغير صمت الطبيعة إلى صوت المطر، والمطر يكشف آلام الناس إن زاد عن حدة فالنهر غزيرا. ومثلما حمل الغيم رسالة إنسانية في بعث الحياة وكشف الامها كذلك الأمر جعل حبيب رسالته في شعره **رسالة إنسانية**، يعبّر من خلاله عن أوجاع الناس وآلامهم.

ويستكمل (في المقطوعة السابعة) وعيه لذاته ولرسالته في شعره، وهي **رسالة جمالية** تتمثل في إشاعة الجمال وتذوّقه والاستمتاع به، وهنا قارن حبيب بين (عملّه) في تسطير دفاتره شعرا وتسطير المزارع لأرضه أثلاما عند الفجر. وفي النهاية يكون نتاج الشاعر حكما شعرية، بينما نتاج المزارع ثمرا يجمعه بفرح ويسخر من الشاعر ومن إبداعاته، لكن الشاعر يردّ على سخرية المزارع بسخرية مماثلة في كون المزارع لا يتفهم جمالية الفن ولم يتذوق لذة إبداع النحات حين ينحت الصخر تمثالا رائعا. لكن شاعرنا ما زال حزينا وقلبه منكسرا.

وبذلك يكون الشاعر (في المقطوعة الثامنة) قد بلغ المرحلة السادسة فوجد ذاته وأدرك رسالته الفنية في شعره، وقد عبّر عن ذلك باستحضار قصة موسى عليه السلام {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه قال ربّ أرني أنظرْ إليك، قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربّه للجبل جعلّه دكا وخرّ موسى صعقا، فلما أفاق قال: سبحانك تُبت إليك وأنا أول المؤمنين} الأعراف 143، ومثلما وصل موسى حدّ اليقين والإيمان المطلق، كذلك بلغ شاعرنا حدّ اليقين برسالته الفنية.

وهنا بدأ مرحلة جديدة وفجرا جديدا في حياته (في المقطوعة التاسعة)، وهي المزج المتوازن بين الشعر والإيمان (الصلاة)، ولكن لا بدّ من بقايا للصراع النفسي بين ظلمة

حدّه، وقد عبّر عن ذلك بأنّ نايه (زائد ثقبا)، فالناي عادة له ستة ثقوب وأخر خلفي، لكن ناي حبيب ازداد ثقبا وحزنا. وأضاف إلى هذا الحزن الشعور بانكسار الفرح ودلّ على ذلك بأن (عوده ناقص وترا)، ومعلوم أن أوتار العود خمسة مزدوجة، مما يعني أنّ إحساسه بالفرح أو السعادة غير مكتمل.

وفي خضم بحث حبيب عن ذاته انطلق من بداياته الفنية الشعرية (المقطوعة الأولى بعد المقدمة) حيث المرحلة الأولى من البحث والتعبير عن الالتصاق بالمكان، والاحتفاء بقريته الأثيرة العالوك متنقلا بين سفوحها ووديانها ومرتفعاتها، وفيها ولها نظم شعره، متغنيا بقمحها وفيضها وغيضها. وقد جاء شعره في تلك المرحلة ينزف ألحانا حزينة (نزفتها لحنا على الوديان)، وقصائده تخلو من فكر أو رسالة هادفة، ولا تعبرّ عن أقصى درجات الحب (وألفتْ القصائد لا كلام ولا هيْام). وقد رافقه في تلك المرحلة الشعور بالقلق والضياع والقهر والخذلان (أطلّ على سدوم، أطل من وله يزيد صبابتي سهرا)

وقد واصل الشاعر رحلة البحث عن الذات (في المقطوعة الثانية)، وفي المرحلة الثانية تابع نظم الشعر على غير هدى وعانى التخبط والحيرة، وعبّر عن قلقه وحيرته في مسيرته الفنية الأولى باستلهام قصة إبراهيم – عليه السلام – حين حاول بلوغ اليقين بتتبعه للظواهر الكونية ليعبدها، "كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)" (الأنعام)، في هذه الآية أراد إبراهيم أن يعلّم قومه كيفية بلوغ اليقين، فاتخذ –عليه السلام – من أفول الكوكب والقمر وسيلة لعدم اليقين بأنهما الآلهة التي تستحق أن تعبد،

وكذلك شاعرنا لم يبلغ في هذه المرحلة يقينه للغاية التي يسعى إليها وهي تحديد رسالته الفنية. ولذلك بقي يحمل حزنا دفينا وانكسارا يبثهما في ألحانه.

وحاول الشاعر في المرحلة الثالثة (في المقطوعة الثالثة) أن يجد ذاته بالاقتداء بغيره من المبدعين القدامى من أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، فيمّم وجهه نحو الشمال نحو سمّيه حبيب بن أوس الطائي، أبي تمام وهو من منطقة حوران في بلاد الشام شمال الأردن، وقد أمضى بقية عمره في شمال سوريا. وأكثر شعر أبي تمام ذيوعا دعا فيه إلى تمجيد القوة وتفضيلها على الكتب والكلام والتنظير (السيف أصدق إنباء من الكتب ...) ، فتوهم شاعرنا الزيودي أنّ رسالته الفنية من الممكن أن تكون في تمجيد القتال والقوة على غرار أبي تمام. فتصوّر حوارا يدور بينه وبين أبي تمام ظهر فيه أبو تمام نادما وساخرا من نفسه لأنه دعا في شعره إلى القوة والقتال والعنف. فتراجع شاعرنا حبيب عن هذه الرسالة.

وبالتالي تحوّل زيودي (في المقطوعة الرابعة) إلى الجنوب إلى تيسير سبول يعاتبه ويخبره أن الدعوة إلى القوة والقتال ليست رسالة الشاعر ، لكنه وجد (سبول) منكسرا مهزوما في أعقاب هزيمة حزيران وانهيار قوة العرب، وقد انتهى الأمر بسبول إلى الانتحار (لماذا خانت الدخون حمرته إذا ما انحل في خديك حين نهبته نظرا).

وما زال شاعرنا حبيب يبحث عن ذاته ورسالته الفنية فتوهم (في المقطوعة الخامسة) أن رسالة الفنان قد تكون في المراوغة والخداع للوصول إلى غاياتٍ شخصية كشأن الصياد الذي أراد من زيود أن يكون مثله فينتهز الفرص للانقضاض على الفريسة أو يقتنص الفرصة السانحة، لكن شاعرنا رفض أن يكون انتهازيا في شعره وعلى العكس من ذلك لعب دورا توعويا في تنبيه غيره من الضحايا إلى ما يحدق بهم من خطر؛ مما يعبّر عن توجهه في هذه المرحلة الشعرية إلى مجتمعه وتوظيف شعره لخدمة مجتمعه (جفلتْ وزدتُها حذرا)، ومع ذلك بقي شاعرنا يحمل الحزن والانكسار في شعره وعدم العثور على الذات وتحديد رسالته الفنية.

الشك وفجر اليقين تتمثل في وسوسة تأتيه، مجسّدة بصوت سبول يطلب منه الانتحار برصاصة يطلقها على رأسه (خذها بغتة في الرأس). لكن شاعرنا يرد على سبول بأنه عثر على ذاته (طلعت رغم جحوده قمرا)، وذلك في استحضار مرة أخرى لحوارية إبراهيم -عليه السلام - في القرآن الكريم للوصول إلى يقين الإيمان، ومع أن القمر لم يوصل قوم إبراهيم إلى اليقين إلا أن قمر حبيب أوصلّه إلى اليقين بأن لشعره دورا إنسانيا وجماليا ينبغي أن يقوم به. ويقارن مرة أخرى بينه وبين سبول؛ فسبول اتخذ طريقا مغايرا لحبيب، فحزن سبول وقهره وانكساره قاده إلى الانتحار، أما حبيب فحزنه وانكساره جعلّه يتوجّه نحو الأرض يزرعها، ويعمل على بعث الحياة وإعادة صياغتها من جديد (ولكني ذهبتُ إلى الحديقة إذ وجدت الأرض عارية لأكسو عريها شجرا).

ويظهر سبول مرة أخرى في المقطوعة العاشرة يحاور شاعرنا، ويحثه على الانتحار مثلما يفعل العصفور إذ يموت منتحرا بكبريائه، فيجيبه حبيب بأنك يا سبول عصفور وابن عائلة كريمة، بينما أنا حبيب ابن الأرض وسأموت فقط حين تموت الحياة في حقلي وأرى الموت واضحا في ضوء الشمس، وسأموت حين أرجع إلى فوضاي وأعيش دون رسالة أو هدف، وأتخبط ما بين الأمكنة وصورها في شعري (سوف أموت ... حين أصوغ هذا الذي من فوضاي تنزيلا على البيداء أو صورا). ومع ذلك ما زال حبيب يحمل حزنا في شعره وقلبا غير مكتمل الفرح.

لكن زيودي يعلن في خاتمة القصيدة أنه انتصر على ذاته وعلى حزنه، وتبسم له سبول وهو يعود إلى ضياعه في المجهول، بينما استغرق حبيب في إيقاع غير حزين ولا منكسر وخرج من حزنه وانكساره بيقينه في الدور الفاعل للمبدع في مجتمعه وفي إشاعة الجمال وبتقديره لذاته .

مع تحيات د. منى محيلان